

العربية كانت عوناً للإسلام على صهر الشغوب في بؤقفة إسمامية الفكرة عربية الأسلوب

بفلم الأستاذ عبد الله العفيل

وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية
(الكويت)

كما ان اللغة العربية قد وجدت في الاسلام سلكاً ينظم جواهرها ويحسن تنسيقها ، فيسلط الاضواء على متخير تلك اللغة حين يمنحه صفة التداول ، ويؤخر عن الاستعمال ما لا تخلو عنه كل لغة من غريب المعنى او حوشي اللفظ . فيكفل لتلك اللغة عوامل البقاء والانتشار ثم ينطلق بعد ذلك متيحاً لها الانتشار مع انتشاره حتى يمكن ان يقال : حيثما ركز الاسلام وضعت نواة التعريب .

ولنستعرض في ايجاز ما قدم كل من هذين الشقيين للآخر من حسنات كان من نتيجتها تلك العلاقة الوثيقة . فبالنسبة لفضل الاسلام على العربية :

1 - حينما اختار الله لكتابه اللغة العربية فانزله بها قد اعطى اللسان العربي « صفة القداسة » وبوأ اللغة العربية منزلة روحية يعترف لها بها كل من اعتنق الاسلام ديناً وارتضى كتابه دستوراً ، فاذا باللغة العربية التي كانت تدعى (لغة عدنان وقحطان) يصح من ابرز اسمائها (لغة القرآن) ، واستتبع هذا ان يشمر لخدمتها وابتغاء الخير لها كل مسلم مهما كان لسانه الذي تعلمه مع لبن امه فراينا اكثر واضعي معاجم العربية من غير ابنائها كالصاغاني والفيروز ابادي وابن منظور الافريقي - وشبه ذلك في مصنفى كتب النحو والصرف والادب فاكثر مؤلفيها هم من العرب محبة

ان الجواب الذى لاجدال فيه عن السؤال الاول ، في صورتها لمجملته ، هو الايجاب وتقرير وثاقه الارتباط بين انتشار الاسلام وانتشار العربية ، والادلال ببعد مدى هذا الارتباط وعمقه ، واصالته ورسوخه .

وللاجابة عنه جواباً شافياً نتبّع الاسئلة الايضاحية .

1 - ان الذى يتأمل العلاقة بين الاسلام واللغة العربية يجد ان دين الاسلام باعتباره وضعاً الهياً ينظم تفكير الانسان وسلوكه بأكمل صورة عرفت البشرية ما هو الا عقائد وافكار واحكام ومبادئ ذات معان ودلالات . ولا بد لتلك المعانى من قالب لفظى وشخصى نظمية ترتسم عليها تلك المعانى فالاسلام من جهة يحمل عوامل بقاءه في ذاته ، ويشق طريقه باشعاعه وهديه ، مما لا يصحح قول القائل : « لولا العربية لما انتشر الاسلام » ويحتم تحويل تلك العبارة الى (لولا العربية لما اتسع ظهوره ورسوخه في النفوس) ، والتاثير والروعة لكتابه . ومن جهة اخرى فالاسلام قد وجد في اللغة العربية التي اختارها الله له من بين اللغات ، مركباً حسناً وائناً صافى الاهاب صادق التعبير عن عمق ذلك الدين ودقة مفاهيمه ووضوح مبادئه ، وسعت ذلك الكتاب الحكيم لفظاً وغاية ، ولم تضق عما فيه من مبادئ وعظمت ..

ولسانا لا دما وولادة - ويؤكد ذلك ان تلك العلوم اللسانية كلها لم تبعث العزائم على وضعها وتدوينها الا لخدمة القرآن كما يعرف من حوادث وضعها ..

2 - وبعد منحه اياها ذلك الاعتبار وتلك المكانة ، اعقب ذلك بالوسائل العملية التي تحقق انتشار هذه اللغة وجريان الفاظها على كل لسان ، فالاذان الى الصلاة بكلمات من لب العربية ، وكذلك الاذكار والادعية وبعضها مناسك في فريضة الحج . وكان من اركان الصلاة (القراءة) ولا تصح الا بالعربية ، فيستدعي ذلك ان يعكف كل مسلم من غير العرب على تعلم ما يقيم به صلاته ثم لن يشبع نهمه بالاقتصار على فاتحة الكتاب وصور منه بل تنشيط الرغبة فيه الى جمع كتاب الله في صدره والنظر في معانيه ومبانيه واذا بهذا المسلم الاعجمي ينقلب عربي اللسان يسعى لصالح تلك اللغة مخلفا وراءه لغة آباءه واجداده .

3 - واذا سما المسلم الاعجمي ايضا الى مرتبة الاجتهاد واستنباط النصوص ، فمن ابرز الشرائط المرسومة لهذه المرتبة ان يتمكن من العربية معرفة وفهما ، لانها هي السبيل الى استنباط الاحكام من معادن النصوص ، وهي الاداة لتمييز الدلالات المختلفة التي تحتويها الفاظ القرآن والحديث ، وبخاصة آيات الاحكام في كتاب الله العربي المبين ، والمستوى المطلوب للمجتهد لعله من ارفع المستويات في معرفة اللغة العربية ، تبعا لدقة آيات الاحكام وصفة العموم والابجاز في تلك الآيات .

4 - لقد قدم الاسلام للغة العربية عوامل البقاء والشبوع حينما اصطفى منها لغة قریش - مع قدر صالح من لغات او استعمال القبائل الاخرى ، وذلك حينما جعل لهذه اللغة المختارة عمادا تدور حوله هو القرآن المنزل بلسان قریش من بين العرب ، كما انه بهذا قد اراح العربية من معاييب لفظية عرفت بها بعض القبائل كالعننة والكشكشة والكسكة لا مجال لتفصيلها ، وطوى بهذا اكثر الحوشي من الالفاظ والمستغرق من المعاني فاصبح ذلك حبيسا في المعاجم الكبرى او موعودا وراءها ...

ولولا هذا الصنيع لتمددت اللغة العربية وتنوعت مشتقاتها الى حد ان تصبح تلك الاستعمالات القليلة لغات مستقلة تخرج الى التراجع .. كما حدث ذلك في اللغة اللاتينية وما تفرع منها من لغات انقطعت صلتها بها تماما .

5 - وتعرضت العربية لتكبات خائفة من حملات الشعوبيين وارجافهم ، ثم من جوائح الغزاة التتار ، والصليبيين ، والمستعمرين آخر الامر وما مكروا به لاذنية مستعمرهم فيهم وازالة عوامل التميز واشدها بعد الدين : اللغة ، فكان الاسلام هو الصرح المنيع دون تلك الحملات ، وكان هو الموقد الدائم الاشعاع لمحو تلك الظلمات عبر العصور

هذا ما يشار اليه - لا على سبيل الاستقصاء - من ابادى الاسلام على اللغة العربية مما يؤول الى الحكم القطعي بانه لولا الاسلام لما انتشرت العربية .

اما خدمة العربية للاسلام : فلا شك ان العربية كان لها اثر بارز في حياة دين الاسلام ، بحيث لم يكن ليتاح له ما اتبع من سمعة انتشار لولا ما اقتضته الحكمة الالهية باختيار تلك اللغة القوية الفنية المتجددة الحية ، ولا نقول لولا العربية لما انتشر الاسلام فان في ذلك مغالاة ، لان سبب انتشاره هو ما فيه من هدي واصلاح وتنظيم ، وانما سعة الانتشار هذه مردها اتخاذ العربية لسانا وما ادى اليه كونها لسانا للاسلام بان يصبح العرب هم اللبنة الاولى في صرحه العظيم من بين الشعوب ، وكان ذلك كسبا لمعادن نفيسة من البشر تتقن فهم دعوته وتحسن اخراجها للناس حتى بلغت دعوة الاسلام ما بلغت من ظهور وانتشار .

1 - وذلك لان العربية وثبتت بجميع اغراض التي تطلبها فيها الاسلام باعتبارها (لغة الاسلام) - ولا اقول لغة دينية له لانها ليست لغة العبادات والطقوس كما هو الحال في اللاتينية ، بل هي لغة القرآن والحديث بما فيهما من نظم شاملة للحياة في شتى جوانبها الروحية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية فهي بهذا لغة الاسلام - وتوفيتها باغراض الاسلام ظاهر من انها وسمت كتاب الله الفاظا ومبادئ ، وكانت فيها الكفاية للتعبير عن المعاني المختلفة والعلوم المتعددة التي ولدت بعد نزول القرآن وورود السنة كالتفسير واصوله والتجويد والقراءات ومصطلح الحديث واصول الفقه والفقه ، بل ان العلوم الاخرى التي تجددت فيها الحياة باحتضان الاسلام لها وعناية علمائه بها كالعلوم العقلية والاجتماعية ... حيث زودت اللغة العربية علوم الاسلام بكل ما احتاجته من مصطلحات ومفاهيم واساليب ، وكان في هذا صيانة للاسلام من العوز الى لغات اخرى يخل اعتبارها بما يحرس عليه من عوامل الوحدة بين معتنقيه .

2 - أنها بما احتوته من أساليب بلاغية ووسائل بيانية كانت استجابة صادقة لما اراده الله في كتابه (القرآن) من نزوله على وجه الإعجاز في الفاظه ومعانيه ومبادئه ، خلاف ما كانت عليه الكتب السماوية التي لم يكن لفظها معجزا ، ولذلك لعبت بها التراجم التي كانت تعتبر هي الكتاب نفسه في حين ان القرآن العربي ، النزول والاسلوب تعالى عن الترجمة باستحالة مادية ، واعتبر ما وضع له من ترجمات : نقلا لمعاني القرآن لا لالفاظه .

3 - ان اللغة العربية - بما تميزت به من خصائص - قد ساهمت في انتشار الاسلام وعمق تأثيره ، من جهة ان غلبتها على اللغات الاخرى التي كانت لدى الشعوب الاسلامية - بعوامل قوتها الذاتية بعد عامل اعتبار الاسلام لها - جعلت مسلمي تلك الشعوب اقرب الى فهم الاسلام بفهم كتابه والتعمق في اسراره وحكمه ، ولا شك ان العربية كانت بهذا عوناً للإسلام على صهر الشعوب في بوتقة اسلامية الفكرة عربية الاسلوب ، ومن الواضح ان عوامل الوحدة كلما ازدادت وتوثقت زادت في تماسك الكيان الاسلامي وضمنت بقاءه .

ومن هذا العرض السريع يتبين ان التلازم بين الاسلام والعربية على اشده ، وان سببية الاسلام للعربية اكيدة لا مراء فيها . اما اثر العربية على الاسلام فهي ليست سببا لاصل انتشاره ، بل كانت عاملا بارزا من عوامل امتداده وخصيصه في خصائصه الهامة ، كما هو الحال في العوامل الاخرى لسعة انتشار الاسلام مثل اختيار المنطقة الوسط (جزيرة العرب) والامة القادرة على حمل امانة التبليغ لما فيها من احتفال بالمبدأ ودفاع عن الفكرة ، واصطفاء محمد بن عبد الله لرسالة الاسلام وخاتما للانبياء . فهذه العوامل كلها - ومنها كون العربية لسانا للاسلام - ذات اثر كبير في انتشار الاسلام بالشكل الذي حصل .

ومن الحق ان يقال : ان صلة العربية بالاسلام صلة حاجة وافتقار ، ونتيجة ما افادته من تلك الصلة تحقيق البقاء لها والانتقاذ من مصير العدم الذي كان يهددها ، اما صلة الاسلام بالعربية فهي صلة رفاه وكمال لتحقيق مصلحة تحسينية لا حاجة ولا ضرورة بالمصطلح الاصولي - اذ لولاها لما اتسع انتشاره ولا استوفى اغراضه الكمالية ، اما مجرد الانتشار فهو ليس بحاجة الى العربية او غيرها لان عوامل البقاء موجودة فيه بما يحتوى عليه ذاتيا من نظام هداية وسبيل فلاح للانسانية جمعاء .

(2) - من الملحوظ بوضوح ان الوعي الاسلامي بالنسبة للمثقفين والوازع الديني بالنسبة لهم ولغيرهم يقوى كل منهما كلما كانت لغة الضاد في قوة وازدهار ، ذلك لان المعاني الدينية والعلوم الشرعية التي هي المنابع الثرة لتغذية الوعي الاسلامي قد صيغت بلغة القرآن ، ولا يمكن التعلق الشديد بتلك المنابع الا بتوفر وسيلة الاستقاء واهلية الانتفاع ، وذلك يرتفع ويهبط بخط بياني مواز لما تكون عليه العربية تماما .

وبالاستناد الى بعض ما مر سابقا من افكار لامناص من التسليم بان تجديد الدين ومواصلة الاجتهاد الفقهي والفكري رهن بالتمكن من ادواته واولها ان يكون من يسمو الى الاجتهاد قد ثقف اللغة وتمكن من درك دلالاتها وفهم اساليبها وذلك كله يسهل حينما تكون الفرص مهيأة في صعيد المجتمع لامداد المجتهد بتلك المكنة ببسرة وسهولة ، كما كان يحصل في عصور الاسلام الاولى حيث كانت العربية في ازهى عهودها ، وكان علماءهم ومجالسهم العلمية في الغاية من الكثرة والقوة ، فرافق ذلك وفرة المجتهدين وتجديد الدين بالمجددين .

وتقيض ذلك ما حصل في عهود ضعف العربية ضعفا حقيقيا باعترالها كلفة رسمية كما حصل في الخلافة العثمانية ، او ضعفها حكما بالالتفات الى استظهار قواعدها دون تذوق ولا تعمق كما حصل في عهود الممالك وما تلاها ، ولذلك لم يكن لتلك العصور ان تجود بالمجتهدين الا ما ندر .

وكذلك الحال بالنسبة للوازع الديني فانه يسير بتناسب دقيق مع قوة العربية وضعفها ، لان تأثير القرآن والحديث في المخاطبين بهما لا يتم الا بادراك مراميها والانتباه لما فيهما من هدى ووعظ وتبشير واتذار وذلك كله مصوغ بأساليب عالية لا يحس بقوتها الا من كان له من العربية نصيب كاف فالوازع الديني والوعي الاسلامي متناسبان قوة وضعفا مع حال اللغة العربية في كل زمان ومكان .

(3) - ان تأثير الفكر الاسلامي عن طريق لغة القرآن في اللهجات الاقليمية في البلاد العربية وفي اللغات المحلية في البلاد الاسلامية التي لا تنطق بالعربية - كبير جدا . وتبدو معالاه في القديم والحاضر . اما في القديم فقد كان من نتائجه تعريب رفاع واسعة بعد الفتح الاسلامي حتى اصحت عربية اللسان والتجنس كالمغرب كله والعراق والشام

ومصر والسودان فانمحت بعض اللغات المحلية ، وضمير بعض آخر منها . كما كان للحروف العربية هيمنتها على جميع تلك اللغات الى زمن قريب اما الآن فان النتيجة نفسها تبدو بصورة اضعف بسبب التفرعات القومية التي اذكت ناراها ، حيث نجد مئات بل آلاف الالفاظ العربية الشرعية منبثة في تضايف تلك اللغات مع بعض التراكيب او القطع القصيرة التي هي من قبيل الادعية والاذكار ، مع تطلع دائم الى التعريب الفردي او الجماعي لتلك الشعوب الاسلامية في آسيا وافريقيا .

ومثل ذلك الاثر نجده في اللهجات الاقليمية فانها مهما كان لها من فشو ورواج فهي تقصر عن ساحة العلم **فالدروس الدينية - حتى للعامة - والخطب والمواعظ كل ذلك بفضل القرآن لا يزال باللغة الفصحى النقية ،** ولاجل ذلك يشعر كل فرد ان من متممات الدين تقوية نفسه في العربية ومضاعفة علمه بها .

وفي هذا المجال لابد من المقارنة بالفكر الديني - غير الاسلامي - لبعض العرب الذين ما زالوا يدينون بالمسيحية ، فهم قد انساقوا نهائيا مع لغاتهم المحلية ولهجاتهم الاقليمية ، بل ان كتابهم الديني رغم انه لا يؤثر لغة على لغة ولذا تناولته التراجم المختلفة - كان حظهم من العربية ضئيلا جدا ، وكانت ترجمته العربية في غاية الركاسة بل هي اشبه بالعامية او الاجنبية المترجمة ترجمة حرفية مما سوغ للدبيب البارغ مصطفى صادق الرافعي ان يدعو لغة الانجيل بالجملة الانجيلية ، واثبت بالوقائع انه كان هناك تعمد فسي ذلك تحاشيا من الجملة القرآنية التي هي في الذروة من الفصاحة والبيان ، فضلا عن ذلك فان معظم الدعوات الى العامية حمل رايتها من لم يحمل قط الفكر الاسلامي ملة او تعلقا . ويتبين ذلك من الكتاب النفيس (تاريخ الدعوة الى العامية) للدكتور نفوسة سعيد ومن كتاب (اباطيل واسمار) للاستاذ محمود احمد شاکر .

فالفكر الاسلامي بفضل القرآن عاصم من قواصم الفارات المختلفة على لغة الضاد من المستعمرين والمبشرين والمستغربين .

(4) - من الواقع المؤلم ان يكون للهجة الاقليمية هنا تأثير في التعابير العربية المحلية ، وهذا امر لا تنفرد به الكويت بل قد لف العالم العربي كله . واذا اخذنا بالتقسيم الخماسي للهجات الاقليمية الى (حجازية - سورية - عراقية - ومصرية -

ومغربية) فان اللهجة الاقليمية في الكويت مزيج من (الحجازية والعراقية) بسبب الجوار المشترك .

وهذه اللهجة فيها عوامل قرب من الفصحى بل يقال فيها احيانا في الالفاظ او التراكيب ، كما ان فيها عوامل رداءة في العربية وحياة بعض الاساليب المهجورة او المايب اللفظية (كابدال الجيم ياء ، وحذف بعض الحروف من وسط الكلمة او ادغامها ، وتحريف ضبط بعض الالفاظ) وكذلك فيها عوامل اجنبية محض ، حيث قد تسربت كثير من الكلمات (الانكليزية) وتقلبت على اللسان كأنها عربية حتى ان بعضها اخذه التصريف والاشتقاق مع كمية وافرة من اسماء الادوات في السيارة وغيرها من الاجهزة الحديثة .

وفضلا عن ذلك فان هناك قسما من لغة الاذاعة والتلفاز - على قلة - والمسرح - على كثرة - لا يزال باللهجة العامية الكويتية ، وهذا كله خطر مائل على الفصحى ، ولذا ينبغي تحامي الكلمات الاجنبية باحياء الكلمات المغنية عنها ، ولو على سبيل المجاز او الاشتراك او التسمح في تحديد الماهيات ، وبأسلوب التعريب الذي نهجه الاقدمون ومكنوا به اللغة من هضم عدد من الكلمات وتمثلها حتى غدت جزءا من العربية . اما بالنسبة للهجات المحلية فينبغي تحاشيها نهائيا في مجالات الثقافة الخاصة او الشعبية ، ويجب تحديد تداولها في السوق فقط الى حين ، ولذلك استحسن الدكتور محمد محمد حسين تسمية تلك اللهجات باللهجة السوقية ولا ينبغي ان تجاوز السوق الى لغة الثقافة الشعبية في الاذاعة ونحوها ولا يسوغ ان يبقى لها حظ في الادب الا ما كان من قبيل الامثال الشعبية مع الاستثناء عما له نظير فصيح لانه يحوز صفة العموم والتداول الواسع لكل من يمت الى العربية بسبب .

(5) - ان المكانة التي يجب ان تحتلها العربية هنا بالنسبة للغات الاجنبية هي مكانة الصدارة والاغلبية وهذا ما تصبو اليه الامال بالاهتمام بالعربية في التعليم واشتراط درجات لها اكثر من غيرها من المواد **والواقع ان اللغة الانكليزية - بوصفها اللغة الاجنبية هنا - لها حظ وافر من الاهمية يخشى منه اذا لم** يضاعف الاهتمام بالعربية ، ولذلك يجب ان تكون للعربية منزلة خاصة لاتساميها فيها لغة اخرى مهما كانت الحاجة اليها ماسة في البعثات او المصطلحات العلمية ، وينبغي ان ينشط التعريب للفظه والاسلوب ، والاميل معقود على مكتب تنسيق التعريب الدائم التابع للجامعة العربية ان يحقق تلك الاماني ، وفق الله القائمين عليه الى ما فيه خير العروبة والاسلام .